في صباح يا ـ هناك ..

قصة بقلم هركون بولص

سف طائر ضخم وحط بارجل حمراء طويلة قرب جثة القطة ، فقذف يوسف بعقب سيجارته من سياج المقهى المرتفع الى حيث كان الطائر يتشمم بمنقار كئيب جثة الحيوان المتقرن ، ولم تصل السيجارة التائهة اليه بل حملها الهواء العاصف الى القارب الراسي تحت المقهى مباشرة ، وسحب نظره قاعاده الى جوف المقهى . ميز المهرب جالسا في كرسي قريب ، فانتفخ الضيق في داخله كالريش . ونهض قليلا ، رآه المهرب بأن ارتفع حاجباه الشبيهان بشاربين وكشفا عن عينين مدورتين وفانطتين كعيني قار. وجاء الى منضدته فنهض يوسف وصافحه. وجلس المهرب . وشرب بعد قليل من كأس الماء ، وطرح يدين طويلتين كقفازي شرطي مرور على المنضدة ، وبرم شاربه . قال بصوت مبحوح :

ـ ماذا قررت ؟

فأومأ يوسف ومد يده الى جيبه . قال دون ان يحرك يده بعد ، وقد لاحظ عيني المهرب الجاحظتين تكادان ان تندلقا على يده الممتدة :

ـ كل شيء حسب الاتفاق ، كما قلنا البارحة ؟

همس المهرب : ـ بالضبط . والنقود ؟

وغسل القلق وجهه فتركه قناعا نظيفا ، دنيئا . وحملق في اليد ، في الاصابع التي حملت النقود الى المنضدة . فقال يوسف وشفتاه ممتقعتان :

ـ البقية عند الوصول .

وتناولها المهرب متعجلا ، واستولت عليه روح العمل فاخذ يعطي توجيهاته . وكان يتكلم بنفس اللهجة . افرغ نفسه البارحة ، وعرفه يوسف برعب . وقد لخص المهرب حياته في استطرادات كشفت عن خبرته كمهرب . وقد بين عدم جدوى الطرق الاخرى في السفر . فالانتظار في دورة المياه في القطارات فيها مجازفة كبيرة ، وهناك مفتشون ماهرون ويؤدون واجبهم بانتظام يثير الاسف . وجواز السفر صعب ، الجواز المزور بالطبع . والهروب هكذا بعد ركوب الرأس ، معاندة ضارة ودل على رجل صغير . اما المجازفة على حدود ايران مع الجنود الذين يقال انك تستطيع رشوتهم بثمن بخس ـ لانهم يرتدون ملابس مهلهلة ومرتبهم لا يكفي لشراء اصباغ لاحذيتهم ـ فقد تكون صحيحة ولكنها خطرة . وباختصار اقنعه المهرب بانه سيكون مغفلا اذا ترك هذه الفرصة تفلت . وقد شرح المهرب كل شيء ، ورتب مهمة السفر بشكل مقنع ، وطمأنه بصوته المبحوح فاخذ يوسف يحلم بالنهر الطويل الموغل في الاحراش ، مجتازا مدينة بعد اخرى في غرفة القارب الوحيدة التي سيقاسمه اياها المهرب . وقال هذا ، قالبا عينيه الى اعلى بينما ينفث دخان التبغ القذر الذي كان يبتلعه : ـ تعال في الساعة الخامسة، صباح غد .

وطلب سيجارة . انف حزين ، وعنق متقرن : وذكره جلد وجهه المتحلل بالقطة . ونظر يوسف الى النهر ، كان الطائر منشغلا باللحم الميت ، وحركة الماء لا تكل . وميز نباتا اصفر يحمل وردة واحدة من دوار الشمس ازالت شكلها الاصلي ضربات الطيور التي اكلت منها ،

ونهض المهرب . وقال ضاحكا :

ـ الى الغد . نترخص .

ونسي يوسف ان يصافحه . كان يحدد نظره في هذا القناع المانع ، فكر بان يحفر صورة وجهه في ذهنه ، ودقق بعينيه في الانف، والعنق ، واليدين اللتين تشبه اصابعهما القصب . وانفلت المهرب عبر الكراسي وهو يغطي وجهه بشال باهت رخيص من القطن . رآه يشير اليه وهو يتحدث مع صاحب المقهى . وفكر : « لقد دفع المهرب حسابي » . واستسلم لموجة الخوف التي دخلت انفه مع روائح التبغ : قد يهرب بنقودي . لقد باع ثمن كتبه ، وساعة اخيه ، واسطواناته واستدان حتى استطاع ان يجمع نصف الثمن . ونظر الى الطيور بعيون قلقة . ثم نهض من مقعده وسار الى خارج المقهى ، وانقطعت الاصوات التي كانت تملأ اذنيه فدخلهما تيار من البرد والهدوء . ورفع يافة سترته . وشيئا فشيئا تلاشت روائح النهر النيئة من انفه . ودخل محلا فطلب سمكة مقلية .

***

بينما كان يمضغ بين اسنانه ذنب السمكة وزعانفها اليابسة،وكان قد اوشك على ان يفرغ ، رغم وضعه للحيطة ، الى جانب ، قطعة جيدة كان يفكر بان يأكلها في النهاية للاحتفاظ بطعم السمكة الحقيقي، واذ رفع عينيه عن الصحن ـ لمح شعر ناديا ومعطفها ومشيتها الاليفة وعرفها ، فمد يده الى الجزء الاخير الاحتياطي ورفع عنه الجلد المسلوق المبقع الاخضر قليلا والذي يشبه جلد ضفدعة ، واكله ، وامتص المشط العظمي والقاه برضا في الصحن واكل حبة زيتون وأعطى نقوده بعد ان غسل يديه وفمه ، وخرج . رأى سيارة قرب ناديا ، فركض ، وفد فكر بأنها ستركب . ولكنها لم تركب . وعاد يسير ببلادة سعيدة،محاولا بيأس ، في الواقع ، ان يكون سعيدا جدا . وعرف أن ايا كان سيعرف رأسا انه غير سعيد . ولم يكن يتعجل امره ، فترك ناديا تدلف الى شارع فرعي ، وصاح في دخيلته الفارغة العريضة : « اذهبوا الى بيوتكم . التجول ممنوع ايها القذرون . اذهبوا الى بيوتكم » . وضحك بفكي ثعلب ، وانشغل بمطاردة المعطف الذي كان يحتوي على جسد اخر أليف وغامض . وحول وجهه الى وجه شرطي ، طارحا نظرة بوليسية على رجل بائس مذعور كان يحاول ان يتقرب منه ، ربما ليستجدي شيئا ما . ثم عاد يوسف ادراجه عدة خطوات ، وقرر أن يصعق الرجل بمفاجأة فاعطاه حفنة من قطع النقود الصغيرة . وخاف الرجل هذا الفعل المجاني في اول الامر ، وانفلت يوسف بوقار مطاردا فتاته في شارع ضيق . وكاد يصل اليها ، ووقفت في مكانها . غطى جبينها غشاء مبتل من شعرها . وقال يوسف : كنت تركضين . من يطاردك ؟

فقالت ضاحكة : ـ لا احد .

واخذت تعدل شعرها . فاخذ يوسف يتكلم . وتكلف في حركاته. وتوقف باص ، فارتعب . انتظر ان تصعد اليه ، ولكنها لم تفعل وقال بهدوء :

ـ انك وحيدة . هل استطيع ان اوصلك ؟

لاحظ اضطرابها .

ـ انني مرهقة . عملت منذ الساعة الثانية ظهرا حتى الان

فقال يوسف بالحاح : ـ سآتي معك . ماذا تقولين ؟

قالت بصوت جاف : ـ ليس اليوم .

وفكر بشقتها الكبيرة . وقال : ـ لا تخشي شيئا . انني اطلب منك شيئا واحدا فقط هو ان اقضي ليلتي لديك .

ورأى الكره في عينيها ، فعجل بقوله محاولا ان يتلفظ الكلمات بمهارة :

ـ اعني ، انام فقط .

كظمت غيظها مع شيء ارادت ان تقوله ، وكان سيكون قاسيا . تقدمت على الرصيف ، وانتظر الباص وهو يشخر قليلا . ثم ارتقى يوسف الدرجة ودلف من الباب خلف ناديا وجلس الى جانبها . ولم تقل شيئا ، وتحرك الباص في اغشية الاضواء الصفراء التي كانت ترتفع كبخار مقبرة في الساحة النظيفة . وفكر يوسف : « لن تكون كالمرة السابقة » . واختطف من وعيه صورة لناديا وهي تعبر في الشقة الانيقة بثوب النوم . ولكن الامر كان مختلفا . وتلصص بعينيه على كتفها ، كان شعرها يغطي صورتها الجانبية . وتدلت ارنبة انفها الجميلة وحدها خارج اطار الشعر . واراد ان يستمر في دوره ، ولكنه رأى ملامحها المرهقة فغلبه الذعر : ربما لم يستطع ان يفعل شيئا مما يريد. ولم يكن يريد الا اشياء غامضة في الحق ، ان يفيظها اولا وقبل اي شيء اخر . شقتها ، وعملها ، وصلافتها : كان فمها الملون دائما يبعث فيه بمشاعر شبه سادية . وفكر بان يهينها مرة ، حين رآها تصعد الى الشقة ومعها رجل اخر . ورآه اخيرا في نفس المحل الذي تعمل به ، الرجل . كانت تستخدم شقتها جيدا .

ونظر الى اصابعها ، كانت تحاول فتح نافذة الباص . اصابع قصيرة ، عصبية وذات اظافر بالية وشاحبة ، واثار رسغها الهزيل رغبته في السيطرة عليها من جديد . استسلمت له مرة واحدة . وبعد ذلك لم يحاول الاقتراب منها . لقد وضعت امامه حاجزا .

وسارا قليلا ، واخرجت مفتاحها من حقيبتها . قال وقد جرحه صمتها :

ـ اذا كنت تخافين ..

واعطت للصمت فرصة لسحقه ، ثم قالت ببطء وحمرة فمها تتعمق في ابتسامة لاحظ يوسف سفالتها :

ـ انني لا اخاف شيئا ، ومن الذي تكلم عن الخوف غيرك ؟

« تهينينني اذن » ، ودلف يوسف وراءها بخضوع . كان داخله مسرحا للتعذيب والسادية ، وكان يقهقه وقد استطال وجهه كوجه الجنرال ديغول . وفي الظاهر حاول ان يصد رغباته الداخلية من الوصول الى عينيه او جلد وجهه .

حين جلس في جوف الشقة الهادئة ادرك ما كان يبحث عنه في مطاردته لناديا ، لحياته المضطربة التي يريد ان يسافر ليعثر عليها ، كان يبحث عن رائحة معينة . ولم يميز ادراكه جيدا . ربما كانت هي هذه الرائحة . وتساءل وهو يتناول سيجارة بحذر ، رائحة ثيابها الداخلية ام فراشها ام جواربها ؟ وقابله وجهها معلقا ضمن اطار على حائط : فارغ ، غير عميق ، ولكنه ملائم . كانت قد اغلقت باب غرفة نومها . انها تبدل . وتمنى بيأس ان تبدل وجهها ايضا . فقد افزعه ان يفكر بانه لن يستطيع قول اي شيء وسيكون مشلولا امام وجهها في حالته الطبيعية هذه الليلة . ونظر الى ساعته . وحاذر ان يسقط رماد سيجارته على المنضدة . وكان تمثال زنجية عارية تضحك باسنان بيضاء شهوانية موضوعا في نافذة .

وخرجت بملابس نوم . ولم تكن الملابس هي نفسها . ولكن بالطبع، ماذا تنتظر . وشغل نفسه بتفحص الصور المعلقة ، محاولا ان يزيح كتلة حسية كانت تحاول ولوج وعيه ، لم يرد ان يستعيد صورتها التي اثرت عليه في المرة الاولى بحيث فكر بانه يحبها تقريبا ، فتاة عاملة شريفة وحياتها التي تبعث على الكآبة . ثم اهانها ، ووضعت امامه الحاجز . الرجل ، لو انه لم ير ذلك الرجل . لو ان الامر بقي في الخفاء ، لو انه تخلص من معرفته الاولية على الاقل لاستطاع ان يتصرف في شروط طبيعية لا يضغط عليها ثقل معرفة او ادراك قاطع . ولكنه كان حرنا انذاك . رآها ، هبط بها الى النهر ، وقال في وجهها البارد انها بغي ففلف وجهها عار هادىء . وذهبت وحدها ، فذهب هو يتنزه دون هدف ثم دخل الى بار رخيص تفوح من زواياه الاربع رائحة قيء قديم ، ثم خرج منه في وقت الاغلاق مع عدة رجال مخمورين بصورة ثقيلة كانوا يتحدثون عن زوجاتهم وعن العالم كحيوانات .

وقالت فجاة : ـ انني اعد العشاء . اذا اردت ان تأكل ، تعال الى المطبخ .

نهض من مكانه . كانت السمكة لا تزال في بطنه ، ولكنه ولج المطبخ . كهفها النسوي الخاص . زوجة من تتخيل نفسها ، حين تنام في سريرها او حين تكون في مطبخها ؟ ليس هو بالتأكيد ، وجلس في كرسي . اخذت تصب له . لم تصب له شيئا في الواقع ، فقد كانت تحتفظ باغذية باردة ومحفوظة . وقال يوسف الذي فرجت عملية الاكل من ترددة : ـ انك زوجة جيدة .

قالت وقد احست بانوثة ضئيلة في الخفاء : ـ لست زوجة احد.

واستمر يحدق فيها وهو يأكل . واقتربت منه كالفأرة فمدت ذراعها الى رف ورأى داخل ابطها الحليق فوق رأسه فوضع يده بطولها على ساقها ، فابتعدت دون ان تقول شيئا . وقال وهو يبتلع عشاءه الاضافي :

ـ ساسافر غدا .

وانتظر ان تسأله الى اين . ولم يتمهل حين صمتت ، واردف :

ـ في الحقيقة ، انني ساسافر مع مهرب . ساجازف . وربما قتلت ، وساكون سعيدا بنهايتي التمثيلية .

تكلمت ، فشعر بارتياح . كان غرضه ، كما ادرك ، ان يجرها الى حوار ينشب بينهما . لماذا كان غرضه هو هذا، لماذا كان يشعر باستعداده للتنازل لها عن كل شيء مقابل كلامها ، مقابل حديث مفصل معها . لماذا ، لم يعرف . حتى الان ، على الاقل ، علاقة غريبة . وقالت :

ـ انك لست هاربا من شيء ، اليس كذلك ؟

قال بضجر محاولا ان يخفي لهفته وكاذبا بنفس الوقت :

ـ لا شيء هناك سوى انني اريد ان اتسلى . ربما طاردونا في النهر قليلا . وربما خانني المهرب .

ـ اذن ستسافر مع مهرب .

ـ انني احتفظ معي بمطواة صغيرة تكفي لبقر معدته ، اذا ما شممت رائحة خيانة . على كل حال ، لا اعتقد ذلك . واظنني ساكون في الخارج بعد ايام . هناك .

ضحكت الفتاة ، وبدت هزيلة وبشعة تقريبا في ملابس النوم . وسمر عينيه المنهكتين في جسدها ، في وجهها الضحل . وكانت تتلبس طابعا بيتيا ، وفي وجهها لا تزال زينة الخارج .

لا بد انك لا تصدقينني . ولكن لا يهمني ان يصدقني احد ، طالما انني ساكون بعيدا صباح الغد ، عن كل شيء .

وتماسكت نفسها وقالت بسام مفاجيء كانها تتسلى باستدراجه الى الحديث للانشغال عن افكار خاصة بها :

ـ لا بد انك تهرب من شيء ما .

فقال : ـ ليس هناك اي شيء . لقد كنت اريد ان اسافر دائما .

ـ ولكن الى اين ؟

وميز تشددها الفجائي الذي انقلب معناه في وعيه الى شبه مقت منها لتماطله ، شعر بقسوة تغمره ، واراد بجموح ان يفرغها من داخله، كانت تسلبه كل شيء بتجريدها للامر وعرضه بهذا النوع من عدم الاهمية . وشعر بالحاجة المقلقة الى التعويض تدفعه الى التهور.وقال :

ـ انك لن تفهمي شيئا . حين اذهب ، وذلك في الصباح ، سيبدو لي ان حياتكم جميعا تتعفن هنا وقد تركتها ورائي ، ولن تصلني الرائحة.

وفكر : « لن تهزئي مني » .

وجلست الى جانبه . فكر : « انها تستعجل الامر . تريد ان تنام مبكرا » . ومد يده الى خصرها . قالت وهي تعيد يده بقوة :

ـ كلا ارجوك . لدي عمل في الغد .

فقال يوسف باسنان مطبقة :

ـ وانا ساسافر في الغد . وربما اقتل .

تعكر مستوى عينيها وهمست فجاة :

ـ لا يهمني ان قتلت انت او قتل الجميع من امثالك .

وتبادلا النظر بحدة . « انني اعاملها كبغي » ، وقال يوسف متخذا موقف التجريح فجأة ، وهو يعود الى مكانه ، متجمعا على نفسه وساخرا:

ـ لن تفهمي شيئا .

وعندما رأى وجهها البارد محتفظا بغلافه أضاف وهو يدرك انه يقلب سلوكه بشكل ما :

ـ وستبقين تنهضين كل صباح فتذهبين الى العمل ، وتصطحبين رجلا ما الى شقتك ثم تهرمين . ستقضين سنين طويلة هكذا حتى لن تعودي الى اصطحاب احد الى الشقة لان هذا الاحد سيجد لنفسه شيئا اخر ، زوجة صغيرة اجمل منك . ولن تفهمي نفسك فربما كان سيمكن ان تكوني فتاة اخرى وتعيشي حياة اخرى . اليس كذلك ؟

وقال بحقد وبكلمات ارادها شفافة لانه احس بالذعر من احتمال ان تتلقاها ناديا ببرود :

ـ لماذا لا تحلقين هذا الوجه مرة واحدة ، اظهري مرة واحدة على الاقل كما انت .

فقالت بصوت غريب ارتاح له لانه بشره بتواصل الحوار :

ـ إن وجهي الذي تراه أيها السيد هو نفس الوجه دائما .

وفي الصمت المعلق قال عبارته الرشيقة التي كان يعدها منذ اية جملتها :

ـ حتى في الفراش ؟

فاردف : ـ اعترفي بانك ترتعشين قليلا حين تعودين الى شقتك هذه دون ان يكون هناك من يصطحبك او من يفكر بك. ويكونون منشغلين بينما تدخلين انت وحدك الى سريرك البارد .

واشار بيده بسفالة : ـ هناك .

صفعته ، فجر رسغها بحيث تألمت فقالت وهي تهمس كالغطة :

ـ اتركني .

فاحتضنها . وهمس في اذنها بصوت يائس منفعل :

ـ نحن وحيدان . انني خائف ، وسوف افتل في سبيل الا افشل . ولكنني قد اموت وقد يلقون القبض علينا اثناء الهروب .

وقالت في اذنه : ـ انك لم تفعل شيئا ايها الجبان ، ولن يحدث لك شيء . لا تخف على جلدك .

وفكر بمتعة : « استدرجتها . استدرجتها » . كان يريد باستماتة ان يجعلها تتخذ هذا الدور ، كما ادرك بذعر . وامسك بها من شعرها وقال :

ـ اننا نمثل جيدا ، اننا نمثل جيداً .

ونهض ، فسمعها تقول بهدوء : ـ انت وحدك من يمثل .

ونظر ، وقد رفع يده يتحسس بها الجدار ، سفلا الى حيث عيناها الجامدتان في نظرة تشبه نظرة صورة فوتوغرافية . ملاه ادراك عارم فانظ ، واحس بانه في حضور السمكة الميتة التي كانت لعينيها الجاحظتين نفس النظرة الجامدة المهيأة باللامبالاة والموت ، والمنفية في عالم اخر لا سبيل الى ولوجه من قبل اخر ، ولم يكن بوسعه امامهما غير ان يضع اسنانه على اللحم الابيض المولود في الماء ، يائسا من ايما تفاهم . ومس الزر البارد المانع باصابعه فاحس بسطحه الصغير مغلقا عنه مغمورا بصلادته التي تخفي نشاطا غير منظور بالنسبة له ، كجميع الاشياء الاخرى التي كانت تتأكل فراغ الغرفة ككائنات مفرغة من الحركة ومنفية هنا الى الابد . ونظر اليها « هي » اخيرا ، منفية بدورها في المكان وغارقة في توترات خاصة وزمن غريب شخصي تستحيل اضاءته حتى بالنسبة اليها . وتحركت يده ، فعرف بارتياح ، انهما لن يتفاهما ابدا . وانتظر من الظلام ان يملي عليه دوره . على كليهما .

بغداد

سركون بولص

صدر حديثا :

أدب المقاومة
في فلسطين المحتلة
١٩٤٨ - ١٩٦٦

تأليف

الكاتب العربي الكبير

غسان كنفاني

دراسة مسهبة عن نتاج الادباء العرب ، من شعراء وقصصين ، في الارض المحتلة مع نماذج كثيرة من شعرهم تنشر لاول مرة .

كتاب هام يشير الى نضال ادبائنا في فلسطين ضد الظلم والاغتصاب والجريمة .

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب